بسم الله الرحمن الرحيم

الانتصار على التتار

سامي بن خالد الحمود

الحمد لله رب العالمين ، والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، وقائد المجاهدين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وسقطت بغداد .. واستباح تتار العصر ، بلاد الإسلام .

فقتلوا الأبرياء .. و سفكوا الدماء .. و قطّعوا الأشلاء .

مسكينة تلك المرأة المسلمة البغدادية .. عندما أطلقت صافرات الإنذار .. ودوت أصوات الانفجار .. فاحتضنت أطفالها .. واشتد خوفها .. وهي تتذكر أختاً لها في أفغانستان ، دفنت مع أطفالها وهم أحياء ، بعد سيل وابل .. من الصواريخ والقنابل .

ثم بدأت المسكينة ترمق السقف بعينيها .. وهي لا تدري ، أتنجو هي وأطفالُها من القصف ، أم يهوي عليهم السقف ؟

ألم نشاهد عبر وسائل الإعلام ذلك الطفل العراقي ، وهو ينظر للمصوّر بعينيه البريئتين ، وقد قُطعت يداه من الأعلى ، واحترق جسده من الأسفل ، بسبب القصف الأمريكي .

وكم شاهدنا من المشاهد التي يتقطع لها الفؤاد .. وتتقرح لها الأكباد ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

أحلّ الكــفرُ بالإسلام ضـــيماً　يطول عليه للدين النحيب
فحـــقٌ ضائعٌ ، وحمى مبـــاحٌ　وسيفٌ قاطعٌ ودمٌ صبيب
وكـــم من مسلمٍ أمسى سليباً　ومسلمةٍ لها حرمٌ سليـــب
أمـــورٌ لو تأمـــلهن طـــفـــلٌ　لَطفَّل في عوارضه المشيب

أتسبى المسلمات بكل ثـــغـــرٍ وعيش المسلمين إذاً يطيب

أمـــا للهِ والإســـلامِ حـــــقٌ يدافع عنه شبَّـــان وشيب

فقل لذوي البصائر حيث كانوا أجيبوا الله ويحكمُ أجيبوا

وماذا بعد هذه المآسي والهزائم ؟ وهل بعد هذا الانكسار من انتصار ؟ هل في التاريخ من أخبار ؟

دعونا أيها الأحبة ، نقلبُ صفحات التاريخ ، وننظرُ في سنن الله التي أمرنا الله بالنظر فيها (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) .

نحن اليوم على موعدٍ مع التاريخ .. مع ملحمة من ملاحم الانتصار ، يوم ابتليت هذه الأمة بغزو التتار ، فانكسرت وانهزمت ، لكنها سرعان ما انتفضت وانتصرت (وما النصر إلا من عند الله) .

ومن العجيب أن هناك شبهاً كبيراً بين التتار القدماء ، والتتار الجدد من اليهود والنصارى والهندوس الذين تداعوا على البلاد الإسلامية لتدمير معتقداتها ، ونهب ثرواتها ، في فلسطين ، والعراق ، والشيشان ، وكشمير ، وغيرها من البلاد .

هل تعلمون أن التتار القدماء سفكوا الدماء .. ونقضوا العهود .. واستمرؤوا الكذب .. وكان مبدؤوهم (من لم يكن معنا فهو ضدنا) .. واعتمدوا على الاستخبارات والتجسس .. وانتهجوا مبدأ الصدمة والرعب .. وأمروا الخليفة أن ينزع أسلحته وهم قادمون لاستباحة أرضه .. وكانوا يلقون المنشورات على أهل بغداد .. ويستعينون بخونة المسلمين .. فما أشبه الليلة بالبارحة .

وقبل أن نبدأ شريط الأحداث ، دعونا نتعرف سريعاً على حالة بلاد الإسلام في القرن السادس ، قبل غزو التتار .

١) بلاد الإسلام قبل غزو التتار :

في هذا القرن ، استمرت حالة الضعف والوهن الذي دب في الخلافة العباسية .
ولم يعد للخليفة السيطرةُ التامة على البلاد الإسلامية ، بل كانت السيطرة لسلاطين الدويلات أو الإمارات الإسلامية ، كالأيوبيين ، والخوارزميين ، والغوريين ، وغيرهم .
وفي نهاية القرن السادس كان الخلفية العباسي هو (الناصر لدين الله) .
يقول ابن الأثير في الناصر : " وكان قبيح السيرة في رعيته ، ظالماً لهم فخرّب في أيامه العراق ، وتفرق أهله في البلاد ، وأخذ أموالهم وأملاكهم "اهـ .
كما شهد هذا القرن وقوعَ كثير من النزاعات و الحروب بين الإمارات الإسلامية ، بل يقع الخلاف كثيراً بين الخليفة وبين هذه الإمارات .
وشهد هذا القرن السادس سنة 567 هـ سقوط آخر دول الشيعة ، وهي دولة العبيديين ، ومع هذا لا زال التوتر قائماً في نهاية هذا القرن بين السنة والشيعة .
أما بالنسبة للحملات الصليبية فقد شهد القرن السادس ثلاثَ حملات صليبية ، تصدى لها الأبطال عمادُ الدين زنكي وولدُه نور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبي الذي انتصر على الصليبيين في موقعة حطين سنة 583 ، واستعاد منهم بيت المقدس .
وبعد الهزائم المتتالية انحسر المد الصليبي في نهاية هذا القرن ، لكن خطراً آخر بدأ يظهر في الساحة ، ويهدد بلاد الإسلام ، وهو غزو التتار .

٢) ظهور التتار :

من هم التتار ؟
التتار أو التتر أو المغول شعب بدوي يعيش في أطراف بلاد الصين ، وهم سكان براري ، مشهورون بالشر والغدر ، طعامهم لحوم الحيوانات كلِّها حتى الكلاب والخنازير ، وهواياتهم المحببة صيد الأسود والحيوانات المتوحشة .

أما عقيدتهم فهم يعبدون الكواكب ويسجدون للشمس ، ويرون أن (تَنْكَرَى) وهو الرب الذي يعلو السماء الزرقاء يبارك خطواتهم ، وأنهم خلقوا ليحكموا العالم كله ، ولهذا سمى زعيمهم نفسه بجنكيز خان أي حاكم العالم .

وينطلق التتار من عقيدة : (إن في السماء رباً واحداً ، فليكن هناك حاكمٌ واحدٌ على الأرض) وهو الذي يسمونه الخان .

بهذه العقيدة الضالة ، والتطرف الديني التوسعي ، كان التتار يدخلون الحروب ويفتكون بالشعوب .

(ولهذا ، الحرب حرب عقيدة ، فلا تعجب أخي ، حينما ترى تتار هذا العصر ينطلقون من عقائدهم الإنجيلية أو مبادئهم الصهيونية).

بدأ ملك التتار سنة 599هـ على يد ملكهم الأول جنكيز خان في الصين ، ثم بدأ ملكه بالتوسع حتى وصل إلى أواسط آسيا سنة 607هـ .

ويصف بعض المؤرخين التتار بوصف عجيب ، يقول : إنهم قوم عراض الوجوه ، صغار الأطراف ، سمر الألوان ، تصل إليهم أخبار الأمم ، ولا تصل أخبارهم إلى الأمم ، وقلما يقدر جاسوس أن يتمكن منهم ، لأن الغريب لا يشتبه بهم .

ولهذا كانت شبكةُ التجسس التترية محكمةَ التنظيم ، ولها عملاء يندسون بين القوافل التجارية ويزودون جنكيز خان بالمعلومات الدقيقة عن البلدان .

و التتار اليوم يعتمدون كثيراً على أقمارهم التجسسية ، وأجهزة المخابرات السي آي أيه ، وغيرِها في التجسس على شعوب العالم .

٣) هجوم التتار على بلاد المشرق سنة 616هـ :

بعد فشل الحملات الصليبية ، امتلأت قلوب الصليبين حقداً على المسلمين ، فقاموا بإغراء التتار وتحريضهم على الهجوم على بلاد الإسلام وكانوا يقولون لهم : إن بلاد الإسلام جنان عظيمة ، تنتج العسل ، وتجري أنهارها باللبن .

ثم إن هذا التحريض وافق توجهاً عقدياً لدى التتار بأن الله بعثهم ليحكموا العالم ، فبدأ جنكيز خان يجهز الجيوش لغزو أراضي الخوارزميين في شرق البلاد الإسلامية .

في سنة **616** بدأت الأحداث بقيام السلطان الخوارزمي خوارزمشاه بقتل التجار الذين جاؤوا إلى خوارزم ليشتروا ثياباً لجنكيز خان ، فلما علم جنكيز خان بقتل التجار ، أرسل رسالة تهديد يقول فيها : (تقتلون تجاري وتأخذون أموالهم!! فإني قادم إليكم بجنود لا قبل لكم بها) .

قابل خوارزمشاه هذا التهديد بالتحدي فقتل رسول جنكيز خان ، وحلق لحى الذين كانوا معه ثم أعادهم إلى جنكيز خان ليخبروه أن خوارزمشاه يقول : أنا سائر إليك ولو أنك في آخر الدنيا ، حتى أنتقم منك ، وأفعل بك كما فعلت بأصحابك .

وبهذا انفجرت سلسلة من المعارك الطاحنة بين جنكيز خان وخوارزمشاه .

ثم هجم التتار على بخارى ، وغدروا بأهلها ، وفعلوا بهم الموبقات .

ثم ساروا إلى سمرقند عاصمة الخوارزميين ، فتصدى لهم سبعون ألفاً من أهالي سمرقند ، فوقعوا في كمين ، وقتلهم التتار في ساعة واحدة ، ثم دخل التتار البلد سمرقند ، فاستباحوها ، وفعلوا بأهلها الأفاعيل .

ثم ساروا إلى (مَرْو) ، فقتلوا في يوم واحد سبعَمائة ألف إنسان .

ومن الملاحظ أن التتار في هذه المعارك كانوا يعتمدون كثيراً على الحرب النفسية ، فكانوا يكرهون الأسرى على القتال معهم وإلا قتلوهم ، فيجعلون الأسرى في المقدمة ، ويوهمون الناس بكثرتهم .

وكانت وسائل الإعلام تنقل أعمال التتار الوحشية إلى البلدان المجاورة ، فتتقطع قلوب الناس رعباً قبل المعركة ، وهذا ما يسمونه اليوم بحرب الأعصاب .

وامتد الزحف التتري حتى وصلوا إلى غزنة ، وهنا ، تصدى لهم السلطان جلال الدين بن خوارزمشاه فهزمهم ، ثم عادوا مرة أخرى فهزمهم ، واستنقذ منهم بعض الأسرى .

واشتد غضب جنكيز خان ، فجهز جيشاً أكثر من الأول وتقابل الجيشان التتري والخوارزمي في معركة عظيمة في كابل ، فانهزم التتار ، وقُتل منهم خلق كثير .

ولكن ، بعد هذه الانتصارات ، وقعت الفتنة بين المسلمين ، بين الأمير بغراق والأمير ملك خان بسبب الغنائم ، فاقتتل المسلمون ، وقُتل أخو بغراق ، فقال : أنا أهزم الكفار ، ويُقتل أخي لأجل هذا السحت ، فغضب وانسحب من الجيش وتبعه ثلاثون ألفاً من أصحابه ، أحس جلال الدين بخطورة الموقف فسار إلى بغراق بنفسه واستعطفه ، وذكّره الجهاد ، وخوّفه من الله ، وبكى بين يديه ، لكنه واصل مسيره ورفض الرجوع .

وفي سنة 621هـ عاد التتار مرة أخرى ، فانهزم الجنود الخوارزمية ودخل بعضهم تبريز ، فأرسل التتار إلى أمير تبريز يقولون له : (إن كنت موافقَنا فسلم إلينا من عندك من الخوارزمية ، وإلا فعرفنا أنك غير موافق لنا ولا في طاعتنا) .

وهذا على طريق التتار الجدد (من لم يكن معنا فهو ضدنا) .

وأمام هذا التهديد ، قام أمير تبريز بإثبات ولائه للطغاة ، فقتل عدداً من الخوارزميين وأسر آخرين ، ثم بعث بالرؤوس والأسرى إلى التتار ، فرجعوا عن بلاده .

استمرت الحروب بين جلال الدين الخوارزمي والتتار ، حتى توفي سنة 628هـ .

وبوفاة جلال الدين ، كسر الباب الذي كان يحول بين التتار وبين بلاد الإسلام

ولهذا على الرغم من فساد وظلم جلال الدين آخر حياته ، لما سمع الملك الأشرف الأيوبي بموتِ جلال الدين ، قال : هو سد ما بيننا وبين التتار ،كما أن السد بيننا وبين يأجوج ومأجوج .

٤) انهيار دولة الأيوبيين وظهور دولة المماليك سنة648 هـ :

ما هي أخبار الأيوبيين في مصر والشام ؟

ضعف أمر الدولة الأيوبية ، ودب الخلاف بين الأمراء ، ثم كانت المصيبة العظمى سنة 625 هـــ فسلم الكامل بيت المقدس لإمبراطور ألمانيا في مقابل إعانته على أخيه .

وبعد وفاة الكامل سنة 635هــ تولى الملك ولده العادل الصغير ، ثم ولده الملك الصالح أيوب ، فغضب عمهما الصالح إسماعيل أمير دمشق ، وتحالف مع الصليبيين ، ثم سلمهم حصن الشَّقِيف ليساعدوه على ابن أخيه الصالح أيوب ، وكان أهل الشام خرجوا مع إسماعيل لحرب الصليبيين ، فلما رأى الشيخان العز بن عبد السلام وابن الحاجب هذه الخيانة انسحبا من الجيش ومعهما عدد كبير من المسلمين .

ثم أفتى العز بتحريم إعانة الصليبيين أو بيعهم السلاح ، وعرّض بالسلطان في الخطبة ، فنقلت الاستخبارات هذه الأخبار إلى إسماعيل ، فأمر بعزل العز عن الخطابة واعتقاله هو وابنِ الحاجب .

وبعد أيام أُطلق سراح العز فتوجه إلى مصر ، وكان إسماعيل يخشى من ذهاب العز إلى مصر ، فأرسل إليه بعض أصحابه يقول له : إن السلطان يريد أن يعيدك إلى منصبك وزيادة ، بشرط أن تنكسرَ بين يديه وتقبلَ يده فقط .

فانتفض العز وأطلقها من فمه قذائف من العزة ، قال : والله يا مسكين ، ما أرضى أن يقبل السلطان يدي فضلاً أن أقبل يده ، يا قوم أنتم في واد وأنا في واد ، الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به .

فقال له : إذن فقد أمر السلطان باعتقالك . قال : افعلوا ما بدا لكم . فاعتقلوه ، ووضعوه في خيمة بجوار خيمة السلطان ، فكان العز يشغل وقته بالصلاة والقرآن والذكر .

وفي أحد الاجتماعات قال إسماعيل لملوك الصليبيين : هل تسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن ؟ قالوا : نعم . قال : هذا أكبر قُسُوس المسلمين ، وقد حبسته ، لإنكاره تسليمي حصونَ المسلمين لكم ، وفعلت به كذا وكذا لأجلكم . فقالوا : لو كان هذا قسّيسَنا لغسلنا رجليه وشربنا ماءها .

سبحان الله ، بعض الكفار إلى يومنا هذا يعرفون قدر العلماء والمصلحين ، وبعض الحكومات العربية الآن ، في فلسطين وغيرها تتقرب إلى أعداء الله بحرب الدين ، واعتقال المجاهدين ، وضرب الجماعات الإسلامية .

وبعد نجاة العز من الاعتقال سار إلى مصر ، فاستقبله الملك الصالح أيوب وأكرمه وولاه القضاء والخطابة .

وكان الملك الصالح أيوب قد استكثر من المماليك حتى سموا المماليك الصالحية ، وكان من بينهم بيبرس الذي ترقى في الرتب حتى أصبح قائداً بارزاً في الجيش المصري .

وفي سنة 647هـ توفي الصالح نجم الدين أيوب ، فتولى الحكم ولده توران شاه ، ثم وقع الخلاف بين توران شاه وبين المماليك فقتلوه ، و ولوا عليهم زوجة أبيه شجرة الدر ، فتزوجت بأحد المماليك وهو عز الدين أيبك ، ثم تنازلت له عن الملك ، وبهذا أصبح عز الدين أيبك أول ملوك دولة المماليك ، ولقب بالملك المعز .

ثم خشي المعز على ملكه من بعض المماليك الصالحية فاتفق مع مماليكه المعزية على قتلهم ، فهرب أمراء المماليك الصالحية ومنهم بيبرس ، إلى الشام ، وانضموا إلى أمير دمشق الأيوبي الناصر يوسف .

٥) حال الخلافة في بغداد قبل غزو التتار :

ما هو حال الخلافة في بغداد قبل غزو التتار ؟

في هذه الفترة كان الخليفة العباسي في بغداد هو المستعصم بالله ، وكان المستعصم ضعيفاً قليل الخبرة بأمور الملك ، وكان زمانه ينقضي بسماع الأغاني والتفرج على الأمور التافهة .

وكانت الخلافة العباسية في بغداد تعاني من الضعف الشديد على مختلف الجوانب .

أما من حيث الجانب السياسي : فقد أقفل الخلفاء العباسيون على أنفِسهم أبوابَ القصور ، وأحاطوها بالحرس ، وأصبحت مقابلةُ الخليفة أمراً بالغ الصعوبة للخاصة قبل عامة الناس ، وكان الخليفة يعيش بمعزل عن أحوال الناس .

وشهدت هذه الفترة أيضاً تسلطاً من الحاشية ورجال السلطة ، لدرجة أنهم هم الذين اختاروا الخليفة المستعصم ، وأكرهوا العباسيين على مبايعته .

وأما من حيث الجانب العسكري : فقد كان للوزير الرافضي ابنِ العلقمي دورٌ كبير في تقليص عدد الجيش وإهماله ، وتسريح الجند ، بحجة توفير الأموال لخزينة الدولة ، وبعد أن بلغ الجيش المائة ألف في عهد المستنصر ، تقلص هذا العدد في عهد ولده المستعصم إلى عشرة آلاف مقاتل فقط .

أما من حيث الجانب الاجتماعي : فكانت الثورات والنزاعات الداخلية ، وأحياناً القتال المسلح وسفك الدماء، بسبب وجود الرافضة في بغداد وانحياز الوزير ابن العلقمي لهم .

وأما الجانب الاقتصادي : فقد شهد عصر المستعصم أعنف الكوارث الطبيعية ، والفيضانات التي أتلفت المحاصيل ، فارتفعت الأسعار ، وضعف الحكم في البلاد .

٦) حملة هولاكو من 651 ـ 656 :

في سنة 651هـــ بدأ (هولاكو بن جنكيز خان) حملته العسكرية باتجاه الغرب .

وصل هولاكو إلى أراضي الإسماعيلية في إيران ، فقضى عليهم ، ثم اتجه غرباً إلى العراق ، و أرسل إلى الخليفة رسالة ، مليئة بالكبرياء والغطرسة ، وأمره بهدم الحصون وردم الخنادق المحفورة حول بغداد (وهذا على طريقة نزع الأسلحة عند هولاكو العصر ، هولاكو يريد أن يترع أسلحة العراقيين ، وهو قادم لقتلهم ، واستباحة بلادهم) .

رد الخليفة المستعصم على هولاكو برسالة جوابية متناقضة جمعت الكبرياء والتحدي ، والضعف والخور ، فذكر فيها أن جميع المسلمين مستعدون ليقاتلوا معه ، لكنه لا يريد أن يعلن الحرب لئلا يزعج المواطنين (انظر إلى التصريحات الفارغة) ، ثم نصح المستعصم هولاكو بأن يصغي إلى صوت السلام ، وأن يَقنع بالأراضي التي تنازل له عنها ، وأن يضيفها لدولته .

وصلت الرسالة إلى هولاكو فطرد الرسل ، وبعث برسالة أخرى عنّف فيها الخليفة في بغداد ، وتوعده بجيش يفوق النمل والجراد .

٧) سقوط بغداد سنة 656 هـ:

بعد استنفاد الطرق الدِبلوماسية ، وفشل المراسلات المتكررة بين هولاكو والمستعصم ، اتخذ هولاكو القرار بالهجوم على بغداد ، فسار إليها في مائتي ألف مقاتل .

وبدأ مسلسل الخيانة ، فيأتي أمير الموصل (بدرالدين لؤلؤ) بالمدد والهدايا للتتار ، ثم ينضم هو وجيشه للتتار يقاتلون إخوانهم المسلمين (يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة) .

ويستمر المسلسل فينضم إلى التتار ثلاثةٌ من القادة في جيش الخلافة ، فاستقبلهم هولاكو ، وأكرمهم .

وصل الجيش التتري إلى العراق في محرم سنة 656هـــ وقسم هولاكو الجيش إلى ثلاثة أقسام :

أولاً) القلب وكان بقيادته هو .

وثانياً) الميمنة بقيادة (بايجو نويان) ومعه القادة الخونة من المسلمين .
وثالثاً) الميسرة بقيادة المسيحي (كد بوقا نويان) .
أما قوات الميمنة ، فسارت حتى وصلت قرب الأنبار على بعد 27 ميلاً شمال بغداد ، فقرر قادة جيش الخلافة أن يبادروا هذه القوة قبل وصولها إلى بغداد ، فعبروا دجلة حتى وصلوا إلى التتار في الشمال فاشتبكوا معهم ، وبدأت قوات التتار الاستطلاعية تتراجع وتهرب ، فظن المسلمون أنها انهزمت ، فأسرعوا وراءها حتى وقعوا في الكمين وأحاطت بهم قوات الميمنة . وبدأت المناوشات بين الفريقين ثم توقفت بغروب الشمس ، وفي الليل قام خونةُ المسلمين بإرشاد التتار إلى خطة ماكرة ، فقاموا بتفجير السدود التي كانت على دجلة فأغرقت المياه مواقع جيش الخلافة ، ومع الفجر هجم التتار على قوات الخلافة التي اضطربت بسبب الماء ، فبعض الجنود هلك في الوحل ، وبعضهم انجرف في الماء ، وبعضهم لازال نائماً في خيمته ، فقتلهم التتار ولم ينج منهم إلا القليل .
ثم واصلت قوات الميمنة التترية سيرها باتجاه الجنوب الشرقي حتى وصلت إلى ضواحي بغداد من جهة الغرب في منتصف شهر محرم سنة 656هـــ .
وأما قوات الميسرة فهاجمت الأراضي الجنوبية الشرقية ، ثم تقدمت من الجنوب باتجاه الشمال الغربي حتى وصلت أسوار بغداد من جهة الجنوب ، وكان ذلك أيضاً في منتصف شهر محرم .
وأما قـــوات القـــلب فوصلت بغداد في الحادي عشر من محرم ، وحاصرت بغداد من الجهة الشرقية .
وعندما أحاط الجيش التتري ببغداد حفروا الخنادق حول الأسوار لتطويق المدينة ، ثم شرعوا في بناء أسلحتهم الصينية حول بغداد .

كان معهم مجانيق تقذف كتل الصخور ، وعرباتٌ ذاتُ عجلات ، وقاذفاتُ نِفط تقذف السهام الملتهبة بالنار على مسافات بعيدة المدى ، فأصبح المدافعون وسكان بغداد المدنيون أهدافاً سهلة لهذه القذائف ليلاً ونهاراً .

ومع بدء الضربات كانت هناك حرب إعلامية ، أراد منها هولاكو تحطيم الروح المعنوية لدى المدافعين والسكان ، فأمر بأن تكتب منشورات ويرمى بها مع السهام ، وكان مكتوب فيها (إن السادة والعلماء والقساوسة والمشايخ والأشخاص الذين لا يقاتلوننا ، كل أولئك لهم الأمان من عندنا) ، سبحان الله ، والمنشورات تتكرر إلى زماننا هذا .

ثم كثفت قوة القلب بقيادة هولاكو هجماتها بآلة الكبش على أسوار بغداد الشرقية فانهارت الأسوار ، وهرب المدافعون واستولى التتار على الأسوار ، وانتهت المقاومة البغدادية .

وأحاط التتار بدار الخلافة وبدأووا بقصفها من كل جانب ، فيدخل أحد السهام من نوافذ القصر فيصيب جارية كانت ترقص بين يدي الخليفة ، (البلاد في الأزمة وعلى أبواب الكارثة ، والخليفة مشغول باللهو والرقص) .

وماتت الراقصة (أحسن الله عزاءكم) ، فغضب الخليفة ، وأصدر الأوامر بزيادة الستائر على نوافذ القصر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وكان الوزير الخبيث ابن العلقمي أولَ من برز إلى التتار ، فخرج إلى هولاكو واجتمع به ، ثم عاد إلى الخليفة وقال له بلسان الناصح، إن الملك يريد أن يبقيك في الخلافة ، ويزوجَ ابنته بابنك ، وأنه يريد الصلح حقناً للدماء ، وأنه يريد مقابلتك ، (فليجب مولانا إلى هذا فإن فيه حقنَ دماء المسلمين) .

فصدقه الخليفة ، وخرج بأولاده الثلاثة ومعهم سبعُمائةِ راكبٍ من القضاة والعلماء والأعيان حتى يشهدوا الصلح ، وعندما وصلوا إلى هولاكو احتُجزوا ، وسُمح لسبعة عشر رجلاً فقط بمرافقة الخليفة .

وقف الخليفة أمام هولاكو فارتعد من الخوف ، ثم أراد أن يتكلم فاضطرب لسانه ، فتم القبض على الخليفة ، واستُدعي الذين جاؤوا معه على مجموعات ليشهدوا العقد ، فكلما أُخِذت مجموعةٌ قتلت ، حتى قتلوا جميعاً .

ثم أُمر الخليفة أن يصدر أوامره للناس في بغداد بإلقاء السلاح ، وسار التتار بالخليفة تحت الحراسة إلى دار الخلافة ليدلَّهم على أماكن الذهب والجوهرات وكان معهم الوزير ابن العلقمي الرافضي ، وبعد أن نهبوا دار الخلافة ، أمر هولاكو بوضع الخليفة في كيس من الجلد ، ثم رفسه الجنود حتى تهشمت عظامه ومات .

وبعد أن ألقى سكان بغداد السلاح ، وانتهت المقاومة ، دخل الجنود التتار بغداد ، فقتلوا الرجال والنساء والأطفال والشيوخ ، وهتكوا أعراض النساء ، وشقُّوا بطون الحوامل ، وقتلوا الأجنة ، ونهبوا الأموال ، وأحرقوا الكتب ، وهدموا البيوت .

وكان الناس يجتمعون في البيوت ويغلقون عليهم الأبواب ، فيقتحمها التتار إما بالكسر وإما بالنار ، فإذا دخلوا عليهم هربوا إلى السطوح ، فيدركونهم ويقتلونهم حتى جرت الميازيب بالدماء .

واختلط الدماء بمداد الكتب والأوراق في مياه دجلة ، وامتلأت بغداد بالجثث حتى صارت كالتلال في الطرقات ، وتعفنت الأشلاء ، وتلوث الهواء ، فانتشر في بغداد الوباء ، ومات بسببه خلق كثير .

وكان كثير من الناس قد اختبؤوا في الآبار وقنوات الأوساخ والنجاسات ، فلما نودي في بغداد بالأمان خرجوا كالموتى من قبورهم ، لا يعرف الوالد ولده ، ثم أخذهم الطاعون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وكان ضحايا هذه المجزة الجماعية ثمانمائة ألف إنسان ، وقيل مليون وثمانمائة ألف ، وقيل مليونين .

كبـلّوهم قتـلوهم مثـلوا	بذوات الخدر عاثوا باليتامى
ذبحوا الأشياخ والمرضى ولم	يرحموا طفلا ولم يُبقوا غلاما
هدموا الدور استحلوا كل ما	حرّم اللهُ ولم يرعوا ذمـاما

وبعد سقوط بغداد ، بدأ هولاكو يستعد للمرحلة التالية من الحملة ، وهي غزو سوريا وفلسطين ومصر .

٨) أحوال المماليك في مصر قبل غزو التتار :

في مصر ، في سنة 655هـ اكتشفت شجرة الدر أن زوجها المعز خطب ابنة صاحب الموصل ، فاتفقت مع مماليكها على قتل المعز فقتلوه .

ثم قام عليها مماليك المعز فقتلوها ، ونصبوا عليهم ولده المنصور علي بن المعز وكان صغيراً كثير اللعب ، فتولى الأمور نيابة عنه كبير الأمراء سيف الدين قطز .

وخلال فترة المنصور هذا سقطت بغداد سنة 656هـ ، وانتشرت الأخبار بزحف التتار إلى الشام ومصر .

وفي السنة التالية 657 وأمام هذا الخطر العظيم قام سيف الدين قطز بجمع العلماء والقضاة لمناقشة الأزمة ، ووقع الاتفاق على خلع المنصور ومبايعة قطز بالملك ، فلُقّب بالملك المظفر سيف الدين قطز .

٩) غزو التتار لبلاد الشام سنة 658 هـ :

وصل الجيش التتري إلى حلب في شهر صفر سنة 658 ، فغدروا بأهلها ، وفعلوا فيها ما فعلوه ببغداد ، ثم تقدموا إلى دمشق فهرب صاحبها الناصر يوسف ، فاستولوا عليها في ربيع الآخر سنة 658هـ ، وعظموا أمر النصارى ، فرفع النصارى الصليب ،

وتسلطوا على المسلمين ، وكانوا يرشون الخمر على وجوه الناس وثيابهم وعلى المساجد ، وإذا مر النصارى بالسوق أمروا الناس بالقيام للصليب .

ووقع النزاع بين أمراء الشام الأيوبيين ، فتفرقوا ، وانعزل عنهم بيبرس والمماليك .

وفي هذه الأثناء أصدر المظفر قطز قراراً حكيماً في مصر بالعفو عن المماليك الصالحية الذين هربوا إلى الشام ، وأرسل قطز إلى الأمير بيبرس وتودد إليه ، فرجع بيبرس إلى مصر ، واستقبله قطز ، وبدأت جموع المماليك الصالحية تتوافد إلى مصر .

وبهذا اتحدت كلمة المماليك ، والتأم شملهم ، على يد المظفر قطز رحمه الله .

١٠) معركة عين جالوت سنة 658هـ :

بعد سقوط دمشق أرسل الطاغية هولاكو رسالة تهديد ووعيد إلى المظفر قطز ، وكان مما جاء فيها (من ملك الملوك شرقاً وغرباً ، باسمك اللهم باسطَ الأرض ورافعَ السماء .. يعلم الملك المظفر قطز ، الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا أننا جند الله في أرضه ، خَلَقنا من سخطه ، فسلِّموا إلينا تسلموا قبل أن تندموا ، وقد سمعتم أننا خربنا البلاد وقتلنا العباد ، فعجلوا لنا بالجواب قبل أن تُضرِمَ الحربُ نارَها وترميكم بشَرارِها ، فما بقي لنا مقصدٌ سواكم ، والسلام) .

وبعد وصول الرسالة عقد قطز اجتماعاً عاجلاً استشار فيه أمراء المماليك ، وبعد المداولات انتهى الاجتماع بقرار الحرب ضد التتار .

وبدأ المظفر قطز يجهز الجيش ، ويحشد الحشود ، ويستعين بالعلماء في الحث على الجهاد والنفرة في سبيل الله ، وكان على رأس هؤلاء العلماء الإمام العز بن عبد السلام .

ثم ظهرت مشكلة أخرى ، وهي عدم وجود الأموال الكافية لتجهيز الجيش ، فاجتمع قطز بالعلماء وأخبرهم إنه يريد فرض الضرائب على الناس ، فوقف العز بن عبد السلام

، وأعلن أن على الأمير أن يخرج الحلي التي في بيته وبيوت الأمراء وأن يضربها نقوداً ، فإذا لم تف بالحاجة فليفرض الضرائب على الناس .

ولما تجهز قطز للخروج ، جمع الأمراء ، وخطبهم خُطبة عظيمة قال فيها : " يا أمراء المسلمين ، لكم زمان تأكلون بيت المال وأنتم للغَزاة كارهون ! وأنا متوجه إلى الله ورسوله ، فمن اختار منكم الجهاد يصحبْني ، ومن لم يختر ذلك يرجعْ إلى بيته فإن الله مطلع عليه " .

وسار الجيش المصري إلى الشام ، فنزلوا في غزة ، ثم سلكوا طريق الساحل حتى بلغوا عكا – وكانت بيد النصارى – فالتقى قطز بملكهم ، وعرض ملك النصارى على قطز المساعدة فرفض ، وطلب قطز منهم أن يكونوا على الحياد ، وهددهم بالقتل إن بدرت منهم بادرة شر .

وكان هولاكو بعد سقوط دمشق قد غادر الشام متوجهاً إلى الصين لحضور انتخابات التتار ، وعَيَّن مكانه أحد الأمراء الكبار وهو (كتبغا نوين).

وجاءت الأخبار إلى (كتبغا نوين) بخروج الجيش المصري إلى الشام فتوجه بجيشه إليهم ، حتى التقى الجيشان على أرض فلسطين ، في عين جالوت بين نابلس وبيسان ، في الخامس والعشرين من رمضان سنة 658هـــ .

ولما التقى الجمعان ، ورأى قطز كثرة التتار ، أمر جيشه أن لا يبدؤوا القتال إلا بعد الزوال ، لماذا؟ حتى يدعوَ لهم الخطباء والناس في صلاة الجمعة .

وكان التتار يحتلون المرتفعات في عين جالوت ، فانقضوا على جيش قطز ، تطبيقاً لحرب الصاعقة التي يمارسونها في حروبهم ، وهي طريقة تعتمد على سرعة الحركة بالفرسان ، والانقضاض السريع على الخصم ، (وسبحان الله ، التتار الجدد يسمونها حرب الصدمة والرعب) .

وبدأ القتال ، فهجمت ميمنة التتار على ميسرة المسلمين ، فانكسرت الميسرة ، وبدأ التتار يخترقون صفوف المسلمين ، فلما رأى قطز هذا الموقف تقدم بقوات القلب التي كانت بقيادته ، وكانت هذه القوات من المتطوعين المحتسبين (والاحتساب يفعل العجاب) ، فأحاطوا بميمنة التتار قبل أن تحيط بجيش المسلمين ، ثم انتهى اليوم الأول .

ثم وقع القتال في اليوم الثاني وكان سجالاً بين الفريقين .

ثم كان اليوم الثالث ، فرغب قطز جنوده على التضحية والشهادة ، فقاتلوا قتالاً شديداً ، وقاتل قطز حتى قُتل جواده ، فنزل على الأرض في موضع القلب من الجيش ، وهذه اللحظة لحظة قاتلة للجيش .

فرآه أحد الأمراء فنزل عن فرسه ليركب عليه ، فقال قطز : ما كنت لأحرم المسلمين نفعك . ورفض قطز الركوب ، حتى أتي له بجواد آخر .

ثم لام بعض الأمراء على هذا الموقف ، قالوا : لو أن بعض الأعداء رآك لقتلك ، وهلك الإسلام بسببك !!فقال لهم : أما أنا فكنت أروح إلى الجنة ، وأما الإسلام فله رب لا يضيّعه .

ثم اشتد القتال ، وحمي النزال ، وأزهقت النفوس ، وتطايرت الرؤوس ، فتقدم قطز بنفسه أمام الأمراء والجيش ، ورمى خوذته على الأرض ، وأطلقها صرخة قوية سجلها التاريخ ، فصاح بأعلى صوته وقال :(وااا إسلاماه) ، واندفع نحو نيران التتار ، كالسيل الجرار .

كالماء أعذب ما يكون ، وإنه لأشد ما يسطو على النيران

ورأى جنودُ الإسلام قائدَهم أمامهم ، يقاتل كالأسد ، فالتفوا حوله ، واستبسلوا في القتال ، وانقضوا على التتار فخلخلوا صفوفهم ، وكسروهم كسرة عظيمة ، ثم التقى الجيشان مرة أخرى عند بَيسان ، ونزل الطاغية (كتبغا نوين) بنفسه إلى المعركة ،

فهزمه الله ، وعرفت سيوف الحق طريقها إلى رقاب الكفار ، وفر الباقون ، فانطلق بيبرس والأمراء وراءهم يقتلون ويأسرون .

وحينها تحقق قطز من نصر الله ، ترجل عن فرسه ، وخر ساجداً لله ، ومرغ وجهه في التراب ، ثم أراد أن يعرف مصير الطاغية (كتبغا نوين) ، فأحضر ولده بين يديه بعد أن أسر وسأله : أهرب أبوك ؟ ، فقال : لا ، إن أبي لا يهرب .

ثم بحثوا عن (كتبغا نوين) فوجوده بين القتلى ، فلما أحضروه ورآه ولده صرخ وبكى ، فتحقق قطز من موته ، فخر ساجداً لله وقال : الآن أنام طيباً .

وفي دمشق ، وصلت بشائر النصر ، فتبادر المسلمون إلى مواجهة من بقي من التتار في دمشق ، يقتلونهم ويطلقون أسرى المسلمين الذين معهم .

ثم بدأوا في تصفية الحسابات مع الخونة النصارى ، فأحرقوا كنيستهم ، وقتلوا جماعة منهم ، واضطربت الأمور ، ولم يستتب الأمن في دمشق حتى دخلها قطز في أواخر رمضان .

المماليك بعد عين جالوت (عهد بيبرس) :

بعد فتح الشام ، تجدد الخلاف مرة أخرى بين المماليك المعزية والمماليك الصالحية .

وفي الطريق إلى مصر ، يتآمر المماليك على قطز ، فيقتلونه ، ثم يبايعون بيبرس سلطاناً على مصر .

وفي القاهرة .. كان الناس قد عمهم الفرح والسرور ، وزينوا الشوارع لاستقبال المظفر قطز ، فلما قدم الجيش وطلع النهار إذ بالمنادي ينادي : (أيها الناس ترحموا على الملك المظفر ، وادعوا لسلطانكم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس) .

بدأ بيبرس حملته الإصلاحية برفع الضرائب ، وإبطال المظالم ، وإصلاح القضاء .

وأمام خطر التتار والصليبيين ، أجرى بيبرس اتفاقيات ومعاهدات مع بعض الجهات التي هي أقل ضرراً على المسلمين ، (وهذا أمر هام ليتنا نتفطن إليه في هذا العصر) ، فتحالف بيبرس مع الدولة البيزنطية ، الدولة الرومانية ، وملك صقلية .

ثم قاتل بيبرس الصليبيين ، فألحق بهم الهزائم ، واستعاد منهم كثيراً من أراضي الشام .

وفي سنة 674 ، يبدأ التحالف الصليبي التتري ضد المسلمين ، فيجهّز ملك التتار أبغا بن هولاكو جيش التحالف المكون من خمسة عشر ألف مقاتل من التتار ، وخمسة عشر ألف مقاتل من الروم ، وسار الجيش إلى بلدة (البيرة) على ثغور الشام.

نزل جيش التحالف على أبواب (البيرة) ونصبوا المنجنيقات استعداداً للهجوم عليها ، فلما أظلم الليل خرج أهل البيرة الأبطال ، فأحرقوا منجنيقات التتار ونهبوهم ، ثم عادوا إلى بيوتهم سالمين ، وبقي العدو على أبواب البيرة عشرة آيام ، ثم انسحبوا .

وفي السنة التالية 675هـ تجمع التتار والروم من جديد ، فخرج إليهم الأسد الضاري بيبرس ، والتقى الجيشان في صحراء الإبلستين وكان التتار أحد عشر ألف مقاتل ، ومعهم جمع من الروم ، وبعد قتال شديد أنزل الله نصره على المؤمنين ، فهُزم التتار ، وولوا الأدبار .

وفي السنة التالية 676هـ كانت الفاجعة والمصيبة في بلاد الإسلام ، فيموت الملك الظاهر بيبرس رحمه الله .

نعم .. مات بيبرس ، مات الهزبر الكاسر والسيف الباتر ، كما يسميه ابن كثير .

وبوفاته اضطرب حكم المماليك في مصر ، حتى استقر الحكم لأسرة المنصور قلاوون .

١١)المماليك في عهد أسرة قلاوون :

بعد تولي قلاوون الحكم سنة 678 ، وقعت الحرب بين جيشه ، وجيش الأمير سنقر الأشقر أمير دمشق .

ووصلت الأخبار إلى التتار بتفرق المسلمين ، فهجموا على حلب وقتلوا كثيراً من أهلها ، وكان التتار يظنون أن الجيش الشامي سيكون معهم ضد جيش قلاوون المصري ، لكن قلاوون خيب ظنهم ، فأرسل إلى صاحب الشام سنقر وطلب منه تناسي الخلافات ، والاتحاد ضد التتار حفاظاً على أرواح المسلمين ، فهدى الله سنقر وكتب إلى قلاوون بالسمع والطاعة ، فلما علم التتار بهذا الاتفاق عادوا إلى بلادهم خاسئين .

نعم .. هكذا يجب أن تتناسى الأمة كل الخلافات ، وتقطعَ الطريق أمام أعدائها .

في سنة 680هـــ عاد التتار مرة أخرى في جيش كبير قوامه مائةُ ألف مقاتل ، وكان جيش المسلمين قرابة الخمسين ألف مقاتل ، والتقى الجيشان شمال حمص .

فانتصر المسلمون بقيادة قلاوون ، وقَتلوا عدداً كبيراً من التتار .

وبعد وفاة قلاوون وابنه الأشرف ، اضطرب أمر المماليك مرة أخرى ، حتى استقر الملك بعد مسلسلات من القتل والخَلع للناصر محمد بن قلاوون الذي عاد للحكم سنة 698هـــ ، وفي عهد الناصر قام التتار بغزو الشام من جديد .

١٢) غزو التتار بلاد الشام سنة 699هـ :

في سنة 699هـــ دخل التتار بلاد الشام ، فتصدى لهم الناصر بن قلاوون بجيشه المصري ، فانهزم جيش المسلمين ، وهرب الناصر ، وانسحب بقية جيشه إلى مصر .

ثم سار التتار إلى دمشق التي أصبحت بلا جيش ، فاجتمع الأعيان وكان معهم الإمام شيخُ الإسلام أحمدُ بنُ تيمية رحمه الله ، فقرروا الذهاب إلى قازان ملك التتار ، ليطلبوا منه الأمان لأهل دمشق ، فلما دخلوا على قازان ، كلمه ابن تيمية كلاماً شديداً نفع الله به المسلمين .

ثم عاد قازان إلى العراق ، وترك نائبه بولاي في الشام في ستين ألف مقاتل ، فخرج ابن تيمية إلى بولاي وكلمه في أسارى المسلمين ، فاستنقذ كثيراً منهم .

ثم وصلت الأخبار بتحرك الجيوش المصرية إلى الشام ، فخرج بولاي ومن معه من التتار من دمشق ، وبقيت دمشق بلا جند ولا حرس ، فخرج أهل دمشق بأسلحتهم ، وصاروا يبيتون على الأسوار والأبواب يحرسون البلد ، وكان ابن تيمية يدور على الأسوار كل ليلة ، يحرض الناس على الصبر والقتال ، ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط ، (وهكذا يكون تفاعل الأمةِ المؤمنة مع الأزمات) .

ثم أدرك الأفرم نائب دمشق خطورة الموقف ، فأصدر أوامره أن يعلق الناس الأسلحة بالدكاكين ، وأن يتعلموا الرمي ، فبنيت الإماجات (وهي معسكرات التدريب) ، وأُمر الفقهاء أن يتعلموا الرمي استعداداً لأي ظرف طاريء (وهكذا يجب أن تستعد الأمة للأزمات) .

ولما اضطرب الناس ، جلس ابن تيمية في مجلسه في الجامع في الثاني من صفر ، وحرض المؤمنين على القتال وبذلِ الأموال ، ونهاهم عن الفرار ، فسكن الناس واستقر الحال .

ثم وصلت الأخبار بأن السلطان الناصر محمد وجيشَه رجعوا إلى مصر ، فركب الشيخ حتى وصل إلى السلطان في مصر وطلب منه النصرة ، وخوفه بالله ، وحث الناس على الجهاد والخروج ، فاستجاب السلطان والناس لدعوة الشيخ ، وتحرك الجيش المصري إلى الشام ، فانسحب التتار إلى العراق وكفى الله المؤمنين القتال .

١٣) معركة شقحب سنة 702 هـ :

بعد سنتين من انسحاب التتار ، أي في شهر رجب سنة **702**هـــ عاد التتار إلى بلاد الشام من جديد ، فاضطرب الناس ، واشتد خوفهم ، وقنتوا في الصلوات .

ثم كانت أولى المواجهات ، فجاءت قوة من التتار فيها سبعة آلاف مقاتل ، فتصدى لها جماعة من أبطال الشام عددهم ألف وخمسمائة ، فنصر الله جنوده الأبطال ، وقتلوا خلقاً من التتار ، وآسروا آخرين .

ووصل التتار إلى حمص ، ثم ساروا إلى بعلبك ، واقتربوا من دمشق ، فاشتد خوف الناس ، واجتمع الأمراء والعلماء في دمشق فتحالفوا على الجهاد ، وكان شيخ الإسلام يطمئن الناس ، ويحلف لهم أنهم سينصرون ، فيقولون له : قل إن شــاء الله . فيقــولها تحقيقاً لا تعليقاً .

ثم بدأ بعض الناس يشككون في شرعية قتال التتار لأنهم يظهرون الإسلام ، فأصدر ابن تيمية فتاويه المشهورة في وجوب قتال التتار ، وكان يقول للناس : " إذا رأيتموني في ذلك الجانب (أي في جانب العدو) وعلى رأسي مصحف فاقتلوني " فتشجع الناس للقتال ، وقويت قلوبهم .

وفي أواخر شعبان ، خرج الجيش الشامي من دمشق لمواجهة التتار ، و خرج ابن تيمية مع أصحابه ليشاركوا في القتال ، فظن بعض الناس أنه يريد الهرب فقالوا : تمنعنا من الهرب وتهرب الآن من البلد ؟ (سبحان الله ما أسرع ما يقع العامة في العلماء) ، ومضى الشيخ رحمه الله إلى المعركة ، ولم يرد عليهم ، إعراضاً عن الجاهلين .

وصل الجيش المصري بقيادة السلطان الناصر محمد بن قلاوون والخليفة المستكفي بالله ، والتقى بالجيش الشامي في مرج الصُّفَّر ، وأفتى شيخ الإسلام ابن تيمية بالفطر في رمضان ، وكان يدور على الأمراء والجند ومعه شيء يأكل منه ، ليعلموا أنه مفطر .

ولما علم التتار باجتماع الجيوش الإسلامية ، انحرفوا عن دمشق ، واتجهوا إليهم .

وبدأ العد التنازلي للمعركة ، وضج المسلمون في دمشق بالدعاء في المساجد والتراويح ، وكان الخليفة والسلطان والقراء يمرون بين صفوف الجيش ، يشجعون الجند ، ويقرؤون آيات الجهاد والاستشهاد ، وكان الخليفة يقول : دافعوا عن دينكم وعن حريمكم .

ثم التقى الجيشان في موضع يقال له (شَقْحَب) وهو الطرف الشمالي من مرج الصفر .

وبدأ القتال ظهر السبت الثاني من رمضان ، وثبت الخليفة والسلطان الناصر حتى إن السلطان الناصر بايع الله في ذلك الموقف على النصر أو الشهادة ، وأمر أن يقيَّد جوادُه حتى لا يهرب .

ولما اقترب التتار ، التفت ابن تيمية إلى أحد أمراء الشام ، وقال : يا فلان أوقفني موقف الموت .

يقول الأمير : فنقلته إلى مقابلة العدو ، وهم منحدرون كالسيل ، تلوح أسلحتهم تحت الغبار ، ثم قلت : ياسيدي هذا موقف الموت ، وهذا العدو قد أقبل تحت الغبرة .

فرفع الشيخ طرفه إلى السماء ، وأشخص بصره ، وحرك شفتيه طويلاً يدعو ربه ، ثم التحم بالتتار .

و اشتد القتال ، واشتعل النزال ، واستبسل الأبطال ، ففر التتار إلى الجبال ، ثم أظلم الليل ، وحاصر المسلمون الجبال ، وقد امتلأت قلوب التتار بالرعب .

يقول الأمير الشامي : وإذا أنا بالشيخ ابن تيمية وأخيه يصيحان بأعلى صوهما تحريضاً للقتال ، فقتل المسلمون التتار وأسروا منهم ، ولم يسلم منهم إلا القليل ، فهربوا والمسلمون وراءهم حتى بلغوا نهر الفرات ، فعبره بعضهم فهلكوا ، وسار آخرون على الشاطيء فانقطعوا وأسروا .

وبهذه المعركة الحاسمة انحصر التتار ، واندفع شرهم عن بلاد الإسلام ، (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) .

١٤) وقفة (من الانكسار إلى الانتصار) :

وبعد هذه الأحداث والملاحم التاريخية ، أقف وإياكم في ختام هذه المحاضرة ، وقفة هامة ، هي عصارة هذا الموضوع وخلاصته ، وقفة (من الانكسار إلى الانتصار) .

لماذا انكسرنا ؟ وكيف انتصرنا ؟ .

وأبدأ بالانكسار فأقول مستعيناً بالله :

١) انكسرنا لما عظمت الدنيا في نفوسنا ، وركنا إلى شهواها وملذاها ، وتركنا الجهاد في سبيل الله ، والتضحية لدين الله .

لما انشغل أبناء الأمة ، بل كبارها ومنهم الخليفة العباسي بالدنيا واللهو والطرب .

ولهذا عندما عجَز الأيوبيون أحفاد صلاح الدين الذين تربوا في القصور عن حمل لواء الجهاد ، قيض الله للأمة المماليك فنصر الله بهم هذا الدين .

٢) انكسرنا لما افترقنا ، وأصبح المسلمون دويلاتٍ متنافرة ، فعادى الأخ أخاه ، وقتل أباه ، طمعاً في الملك وحطام الدنيا ، فأذاق الله بعضَنا بأس بعض ، وأُهدرت قوة الأمة في هذه الحروب الداخلية .

٣) انكسرنا لما دب الضعف في الخلافة العباسية ، وأغلق الخلفاء على أنفسهم أبوابَ القصور ، ولم يأبهوا بما يجري للناس من الظلم على أيدي الأمراء والحاشية .

لا يلامُ الذئبُ في عدوانه إن يكُ الراعي عدوَّ الغنمِ

٤) انكسرنا لما ارتفعت راياتُ المبتدعة من الرافضة والإسماعلية ، وتولى بعضهم المناصب الحساسة في الدولة ، فكانوا جنوداً مخلصين لأعدائنا من التتار والصليبيين ، ولا يزال مسلسل خياناهم للأمة مستمراً إلى هذا الزمان ، ومع كل عدو من أعدائها .

فزماناً هّودا و زماناً تنصراً

وسيصبو إلى المجو س إنْ الشيخُ عُمِّرا

٥) انكسرنا لما تكاسل العلماء عن أداء واجبهم في نصح الأمة ، والاهتمام بقضاياها ، والصدع بكلمة الحق ، فانطوى كثير منهم على نفسه ، ونسي ميثاق الله الثقيل ، ورضي بعرض من الدنيا قليل .

٦) انكسرنا بالخيانة ، عندما قام بعض بني جلدتنا بخيانة الأمة ، وفي بعض الأحداث كانت الأمة قاب قوسين أو أدنى من الانتصار ، فإذا بمسلسل الخيانات يقلب الموازين ، ويحطم ما بقي من قوة المسلمين .

لقد قام الخونة بإرشاد التتار إلى العورات ومواطن الضعف في بغداد ، وتسليم البلاد للتتار ، والتجسس لصالحهم ، ومراسلتهم وتحريضهم على إخوانهم ، وتسليم إخوانهم المجاهدين إلى التتار ، وسلّموا بيت المقدس للصليبيين في مقابل الملك ، وقدموا المدد والدعم اللوجستي للتتار ، ثم وقفوا مع التتار ضد إخوانهم المسلمين .

٧) انكسرنا عسكرياً بعد أن انكسرنا نفسياً ، فكان للحرب الإعلامية دور كبير في فشل المسلمين وهزيمتهم النفسية ، وأصبح المجتمع يردد ما يبثه الإعلام التتري من العبارات مثل : جيش التتار لا يهزم ، ليس هناك خيار سوى الاستسلام ... فكانت الهزيمة النفسية ، ثم النكسة الميدانية .

٨) انكسرنا عندما أُهمل الجيش المسلم ، ووُلِّــي عليه الخونة أمثالُ الوزير الرافضي ابنِ العلقمي ، الذي سرح الجيش وأهدر قوة الأمة ، فلما هجم الأعداء ، وحل بالمؤمنين البلاء ، انكشفت هذه القوة الهزيلة ، ولم تغن عن الأمة شيئاً ، وصدق الله (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) .

وأما الانتصار فأقول وبالله التوفيق :

١) انتصرنا لما نصرنا الله بالجهاد ، الجهاد ، الفريضة التي افتري عليها ، ووصم أهلها بالتطرف والإرهاب .

الجهادِ في سبيل الله وحده بعيداً عن شعارات القومية والوطنية والعرقية ، لقد سمع الله صحية المظفر قطز وهو يصرخ (وإسلاماه) ، لم يقل واعروبتاه ، واوطناه ، واتراباه .
فلما علم الله صدق نيته ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده .

مضى الإسلام فابك دماً عليه وما ينفي الجوى الدمع الغزير
ولا تركن إلى سلم وجـــاهد عسى أن يجبر العظم الكسير

٢) انتصرنا لما خلُصت المقاصد ، وصحت العقائد ، وتعلقت قلوب المسلمين بالله وحده ، فلم يلوذوا بالحسين ، ولم يلتجؤوا إلى البدوي ، ولم يطوفوا بالقبور والمشاهد .

أما اليوم ، فيحق لعين الموحد أن تدمع ، حينما يرى الملايين من أبناء الأمة يسيرون على خطى أبي لهب ؟

فالتوحيد التوحيد يا أمة الإسلام ، علماً وعملاً وتصحيحاً ودعوة .

٣) انتصرنا لما اتحدت كلمة المسلمين ، واجتمع شملهم ، وتناسوا الخلافات فيما بينهم ، وتحرروا من مخلفات النزاع الشخصي ، فيعفو قطز عن بقية المماليك ، ويكرم بيبرس ، ويدفن قلاوون الخلافات ، يستعطف عدوه أميرَ الشام في سبيل مصلحة الأمة .

٤) انتصرنا لما صنعنا الرجال ، وربينا الأمة والشباب تربيةً إيمانيةً علميةً جهادية ، فآتت هذه التربيةُ أكلَها بإذن ربها ، وأخرجت للأمة أبطالاً عظماء .. كنور الدين محمود وقطز وبيبرس وغيرِهم من الأبطال .

ولنا أن نتساءل .. من أين تخرج هؤلاء الأبطال ؟

دعونا نقف قليلاً مع هذه التربية التي كانت بحق مصنعاً للأبطال .

يذكر المقريزي أن السلطان إذا اشترى العبد المملوك ، جعله مع مجموعة من المماليك ، ثم تسلّم هذه المجموعة إلى المختص بالكتابة فيعلمهم الكتابة ، ثم القرآن والأذكار والآداب ، فإذا شب المملوك أخذ شيئاً من الفقه ، فإذا بلغ بدأ في تعلم فنون الحرب من ركوب الخيل ، ورمي السهام ، واللعب بالرمح وغيرها .

وبعد هذه الدورة التدريبية الطويلة ، يتخرج المملوك بطلاً مهاباً ، متأدباً بآداب الإسلام ، ثم يعين على رتبة ، ويترقى بعدها إلى رتب أعلى حتى يصير أميراً من الأمراء .

يقول المقريزي : " فلذلك كانوا سادةً يدبرون الممالك ، وقادةً يجاهدون في سبيل الله ، وأهلَ سياسة يبالغون في إظهار الجميل ويردعون من جار أو تعدى " .

هكذا كان الأيوبيون وبعدهم المماليك يربون الأبطال ، ويصنعون الرجال .

لم يكونوا يربوهم على الأغاني والتمثيليات ، ولا على اللعب في المباريات ، ولا على البلوت والملهيات .. نعم .

لا بد من صـــنع الرجال ومثـــله صـــنع السلاح
وصنـــاعة الأبطال علمٌ قد دراه أولو الصـــلاح
لا يصنـــع الأبطال إلا في مساجدنا الفســـاح
في روضة القـــرآن في ظل الأحاديث الصحاح
من خان على الصلاة   يخون حي على الكفاح

٥) انتصرنا بالتضحية ، لما ضحينا بدنيانا في سبيل ديننا ، فلم تلهنا الشهوات والملذات عن الاستجابة لأمر الله .

الانتصار يستترف الدماء والأشلاء والأموال .. ولابد للعملية الجراحية من دماء ..

لابد أن تربى الأمةُ على دفع ضريبة الانتصار ، كما دفعها السلف الأبرار .

نعم .. إذا لم نستطع أن نتغلب على شهواتنا ، فلا يمكن أن ننتصر على أعدائنا ، وإذا لم نتحرر من أغلال الشياطين ، فلا يمكن أن نحرر فلسطين .

٦) انتصرنا عندما نشرنا الدين والعلم والدعوة ، عندما رفعنا راية الدين وأعلينا مترلته في نفوس الناس .

ولو نظرت في تراجم الأمراء الأيوبيين والمماليك – على ما كان فيهم من التقصير – تجد أهم يتنافسون في نشر العلم وإقامة المدارس والأوقاف العلمية ، بل كان بعضهم يحضر مجالس العلماء ، ويسمع الحديث ويكرم أهله .

إن روحَ التدين ، وانتشارَ العلم والدعوة سببٌ عظيمٌ لاستقرار المجتمع في أوقات الرخاء ، وذخرٌ للأمة في أوقات البلاء .

٧) انتصرنا بالقدوة الحسنة ، عندما رأى الناس علماءَهم وأمراءَهم ، يبدؤون بأنفسهم في التضحية والبذل لهذا الدين ، فكانوا أسوة حسنة للناس .

فلم تكن قدواتُ المجتمع حفنةً من المغنين أوشلة من الممثلين أو مجموعة من اللاعبين .

٨) انتصرنا.. بالسلاح المعطل .. الذي هو أشد فتكاً من القنابل الذرية ، والصواريخ الجوية .. الدعاء الذي لا تصمد أمامه أيُ قوة على وجه الأرض .

عندما كان الخطباء والمسلمون في عين جالوت ، يبتهلون إلى الله بالدعاء يوم الجمعة .. عندما كان قطز يصيح بين الصفوف : اللهم انصر عبدك قطز على التتار .. عندما كان ابن تيمية يرفع بصره ، ويناجى ربه .. فاستجاب لهم ربهم ، ونصرهم على عدوهم .

وختاماً .. إنه وإن تسلط الأعداء ، واشتد البلاء ، وعظمت اللأواء ، فلله في كل زمان أوس وخزرج ، يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم .

هاهو العملاق النائم يستيقظ .. هاهو الإسلام ينتشر .. هاهي رايات الجهاد ترفرف رغم أنوف المجرمين .. هاهي بشائر النصر تلوح أمام الناظرين .. هاهم أسود الله في فلسطين والشيشان وكشمير وغيرها ينتصرون على حب الدنيا وكراهية الموت ، يجاهدون في سبيل الله ، ويرفعون لا إله إلا الله ، ويثبتون للعالم أن هذه الأمة لا تموت بحال ، ولا يضرها كيد الأنذال ، وأن رحمها ولودٌ بالأبطال .

يا أيها الأسد الكواسر أبشروا النصر لاح مع الصباح فكبروا

اللهم اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدمنا وانصرنا على القوم الكافرين .

اللهم أعز الإسلام وانصر المسلمين وأذل الشرك والمشركين ودمر أعداء الدين .

اللهم أقم علم الجهاد واقمع أهل الشرك والفساد .

اللهم انصر إخواننا المجاهدين في سبيلك في كل مكان .

اللهم انصرهم في فلسطين وكشمير والشيشان وأفغانستان .

اللهم عليك بأعداء الدين ، اللهم عليك بهم فإنهم لا يعجزونك .

اللهم عليك باليهود والنصارى والمجوس والهندوس وسائر إعداء الدين .

ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا وإليك المصير ، أنت حسبنا ومولانا فنعم المولى ونعم النصير ، وصلِّ اللهم وسلِّم على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .